ابن حزم في (المعجب في أخبار المغرب) للمراكشي

قال المراكشي في (المعجب في تلخيص أخبار المغرب):

أبو محمد الذي يحدِّث عنه الحميدي هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي. قرئ علي نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه.

أصل آبائه الأدنين من قرية من إقليم لبلة من غرب الأندلس، سكن هو وأبوه قرطبة وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، ووزراء ابنه المظفر بعده، وكان هو المدبر لدولتيهما، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخي المهدي المذكور آنفاً، ثم إنه نبذ الوزارة واطرحها اختياراً وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس.

وكان على مذهب الإمام أبي عبد الله الشافعي رحمه الله، أقام على ذلك زماناً ثم انتقل إلى القول بالظاهر، وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر.

وله مصنفات كثيرة، جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه، على مهيعه الذي يسلكه ومذهبه الذي يتقلده، وهو مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل؛ بلغني عن غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له نحو من أربع مئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة، وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير: أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة **310** وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة، وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له.

ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة فمن شعره:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ، فجائعه تبقى ولذاته تفنى

إذا أمكنت فيه مسرة ساعة ، تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف ، نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة ، وفات الذي كنا نقر به عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى ، وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه ، إذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ، ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع ، لجد علي ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ، ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم ، فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل: أغفلته وهو حاضر ، وأطلب ما عنه تجيء به الكتب!
هنالك يدري أن للبعد قصة ، وأن كساد العلم آفته القرب!
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا ، له ودنو المرء من دارهم ذنب
وإن مكاناً ضاق عني لضيق ، على أنه فسح مهامهه سهب
وإن رجالاً ضيعوني لضيع ، وإن زماناً لم أنل خصبه جدب

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه:

ولكن لي في يوسف خير أسوة ، وليس على من بالنبي ائتسى ذنب
يقول وقال الحق والصدق إنني ، حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن المختار له قوله:

لا يشمتن حاسدي إن نكبة عرضت ، فالدهر ليس على حال بمترك
ذو الفضل كالتبر طوراً تحت ميقعة ، وتارة في ذرى تاج على ملك!

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي ، فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى ، له سأل المعاينة الكليم

ولمن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل نمام:

أنم من المرآة في كل ما درى ، وأقطع بين الناس من قضب الهند

كأن المنايا والزمان تعلما ، تحيله في القطع بين ذوي الود!

وجد بخطه أنه ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة **384**

توفي رحمه الله في سلخ شعبان من سنة **456**.

وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحة عن بعض الغرض لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم.